

قصر الباي أحمد باي

د. بجاجة عبد العزيز، محافظ القصر

ترجمة: فايزة بن النوار

جمعية الشعري لعلم الفلك

قسنطينة ، مدينة الجسور المعلقة وموطن العلم والعلماء، هي مدينة ساحرة، تجعل زائرها يبحر في رحلة شائقة عبر الزمن، موقعها الاستراتيجي وأسوارها المنيعة أوت حضارات متعاقبة، ضاربة في التاريخ، إذ لطالما كانت مأهولة و تعجّ بالحياة منذ أكثر من 2500 سنة خلت، ومازال الصخر العتيق الذي يحمل على أكتافه هذه المدينة، يحفظ سجلّ تاريخها و ماضيها.

تتوّج المدينة القديمة ،جوهرة معمارية عريقة، تتمثل في قصر احمد باي، الذي يبدو وكأنه حلم من حكايات ألف ليلة وليلة، واحد من أروع القصور التي تعود إلى الحقبة العثمانية بالجزائر، وهو من أهمها لما له من قيمة جمالية و معنوية، كونه آخر من سقط في يد الاحتلال من حصون المقاومة القسنطينية، وهو يروي أساطير شجاعة و بطولات القسنطينيين في دفاعهم عن شرفهم، وقصة الباي احمد آخر بايات المدينة وقائد ثورتها الجليلة، كما أنه صاحب فكره انشاء القصر

أحمد باي آخر بايات قسنطينة

هو أحمد بن محمد الشريف بن أحمد القليّ (1784-1848)، ينحدر من عائلة كرغلية، أبوه عثماني، وخليفة سابق، أما أمه فجزائرية، وقد تربى يتيم الأب، ولكنه حظي بتربية سليمة وتعليم جيد، تولى الحاج مناصب رفيعة في قلب البايك و خارجه، إلى أن صار باي قسنطينة التي شهدت استقرارا كبيرا في عهده، وقد نال شرف تنظيم وقيادة ثورتها، و حظوة هزيمة الفرنسيين الذين ولّوا خائبين خلال الحملة العسكرية الأولى على المنطقة سنة 1936.

قرر احمد باي إعادة بناء القصر الذي كان يمثل مسكن والديه وملكية خاصة بالعائلة، وتحديدًا دار أمّ النون التي كانت لوالدته، فهو أراد قصرا جديدا يكون معقل الحكم الإداري والسياسي والعسكري للبايك، وليس

مجرد دار يتعاقب عليها بايات المدينة،و بهذا تحول المكان الى مركب جميل تحبوه الحدائق الغناءة، وسط قلعة مسورة.



شيد القصر على مرحلتين، بدأت الأولى منذ تولي الباي أحمد منصبه عام 1925، أما المرحلة الثانية من البناء فجاءت عقب سقوط الداى حسين عام 1932، والاستيلاء على العاصمة الجزائرية، ليجد الباي

نفسه وحيدا على رأس هذه المنطقة التي تسيل لعاب العدو الفرنسي، فقام بتدعيم أسوارها وتوسيعها لتكون حصنا منيعا وآمنا، وأصبح القصر بذلك مقرّ حكم ومركز قوّة أكثر منه مسكن للباي، وهو اليوم نموذج للهندسة الانطوائية.



في عام 1835 انتهت أشغال البناء، بيد أنّ مقام أحمد باي في القصر لم يتجاوز السنتين، فبعد سقوط قسنطينة بيد المحتل الفرنسي العام 1837م، تم تحويله إلى مقرّ للإدارة العامة الفرنسية ، التي لم تمنع نفسها من الحاق الضرر به ، محاولة طمس معالمه وإضفاء الطابع الأوروبي عليه، كما تمت إزالة جزء كبير منه بهدف توسيع الشوارع المجاورة له، بما في ذلك الأملاك الخاصة بعائلة الباي، تحت شعار "تمدين المحيط". رغم كل التشويهات التي طالته، ظل قصر احمد باي صامدا و محافظا على هويته العربية الإسلامية الأصيلة.

قصر الباي

قصر الباي تحفة معمارية و متحف للهندسة العربية الإسلامية، فقد استدعى الحاج كوكبة من أمهر المهندسين والبنائين والحرفيين، من أجل تجسيد هذا القصر-الحلم الذي استوحى الباي تصاميمه من سحر الشرق وأصالة البلدان التي زارها في حياته كـمصر، تونس، سوريا، تركيا والبقاع المقدسة...

يمتد هذا الصرح على مساحة 5600م مربع،يمتاز باتساعه ودقة تنظيمه وتوزيع أجنحته التي تترجم عبقرية الباي في المعمار والذوق معا، وهو يشتمل على طابق أرضي به فناءات رحبة وحدائق غناءة يقال أن الباي كان يعتني بها بنفسه، يتوسطها حوض كبير كانت تستحم فيه النساء بالمياه الباردة المتدفقة من أعلى القصر، مشكلة شلالات تصب في كؤوس كبيرة ذات أحجام متميزة، جرى نحتها وصقلها كمزهريات ذات التواء متناغم، وتشير وثائق متوفرة في مركز الأرشيف الجزائري، أنّ خزان المياه الذي يقع أسفل القصر، كانت تعيش فيه أسماك صغيرة مزدهية بلونها الأحمر، وحظيت تلك الأسماك باعتناء خاص من طرف نساء القصر.

وإذا ما توجه الزائر نحو الطابق العلوي، يلاحظ سلما يؤدي إلى فناء محاط أيضا بأروقة ذات أقواس، ويحتضن الفناء سلسلة من الشقق تحتوي على أثاث قديم، وبالجوار فناء آخر مبلط بالرخام ومزين بأعمدة على درجة عالية من الجمال، تطرز حدائق غناء بشجر البرتقال والنباتات الزهرية، وفي الأعلى غرف رحبة بجوارها حمام ذو هندسة مغربية كان مخصصا للباي ولخدمه من النساء، وفوق هذا الحمام المغربي لا تزال عدة عصافير وبلابل وغيرها من الطيور المغردة تنصب أعشاشها هناك. كما يوجد ما لا يقل عن 27 رواقا يسمح بمرور تيار الهواء والنسمات المنعشة في أيام الصيف ، و250 قطعة من الرخام جيء بها من مناطق متوسطة شتى نذكر منها إيطاليا، كما يضم البناء 121 غرفة وقبو وملحقات أخرى، أما أبوابه التي تزيد عن الـ500 ونوافذه مصنوعة من خشب الأرز المنقوش بمهارة والمزخرف بالألوان الحمراء والخضراء والصفراء ، شأنها شأن الأسقف المستعارة للقصر.

وتؤرخ اللوحات المرمرية المزينة لجدران القصر، لوقائع تاريخيه ومعارك خاضها الباي إلى جانب داي الجزائر، ومختلف الرحلات التي قام بها الباي أحمد إلى الشرق الأوسط ومكة المكرمة، كما تحمل الجدران آثار الفترة الاستعمارية مابين القرنين 19 و20 م، فإلى جانب قيمتها الفنية ،تعد قطع السيراميك التي تزين الجدران محط أنظار الباحثين الذين يرون أنها تخفي ألغازا تنتظر من يفك أسرها.



القصر نموذج حي على الشراء الهندسي العريق، جدران حجرية وأروقة تعلوها أقواس هلالية سحر المرمر وأصالة الخشب... كل هذه الخصائص وسمت البيت الجزائري القديم. من أجل ذلك، تم تصنيف دار الباي كمعلم أثري خلال الفترة الاستعمارية، 21 من مارس 1934 أي بعد حوالي 100 سنة من انجازه، فهو

جزء لا يتجزأ من تاريخ المدينة وشاهد على ماضيها.

بعد الاستقلال ، انتقل القصر إلى ملك الجيش الشعبي ،لتشغله مصالح بلدية قسنطينة منذ سنة 1969، حيث استغل لإقامة المعارض والأحداث الثقافية إلى غاية 1982، حين قررت الدولة العمل على إصلاحه والقلعة المتواجدة بالعاصمة.

إنعاش قصر الباي

من أجل المباشرة في عمليات الترميم، استدعي فريق من المحترفين البولنديين من مكتب PKZ المختص بالحفاظ على المعالم الأثرية، قام بدراسة المكان و أجرى تقريرا لحالته اكتمل سنة 1986، ليتم

بذلك رسم ملامح المشروع المتمثلة في إعادة القصر إلى ما كان عليه خلال الفترة العثمانية ومحو كل أثر للوجود الاستعماري به. وتحديدًا تلك الحدود التي رسمتها فرنسا بغرض تقسيم المساحات التي شغلتها الإدارة الفرنسية، وكذا استرجاع كل المواد الأصلية، مع التخلص من كل الأثاث الأوروبي الذي يعود إلى سنة 1920، وتم فرشته في الممرات والغرف (التي أحييت مكاتب إدارية)، وبالتالي تنقية المكان من شائبة غريبة عنه وجعل المكان نظيفًا وواسعًا كما كان عليه في عهد الباي.



انطلقت عملية التنفيذ رسميًا سنة 1991 ، أين بدأت المرحلة الأولى من الترميم التي شملت أشغال مكثفة لتدعيم البناء بمادة الخرسانة المسلحة، تكفلت بها مؤسسة وطنية للبناء إلى جانب شركة أخرى لكن الأشغال عرفت فترات انقطاع سنتي 95-1996 تسببت في تأخيرها ، كما كانت فرصة لتحسين خطة العمل.

استأنفت الورشات 1988 ، لتبدأ المرحلة الثانية التي شهدت تقسيم المهام على عدة مؤسسات صغيرة ، كان الغرض من ذلك تسريع إيقاع العمل، تلتها مرحلة أخرى بدأت سنة 2002 تميزت بتفرد مؤسسة واحدة باستكمال انجاز كل ما تبقى، ثم جاء دور إضفاء اللمسات الأخيرة على القصر، تولاها حرفيون فنانون من مختلف أنحاء التراب الوطني، منهم من يختص بالصناعات النحاسية ومنهم من يتفنى في صنع الثريات الزجاجية أو فن السيراميك العريق، و نجارون لتصليح الأثاث القديم أو محاكاته.

صرح الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية التابع لوزارة الثقافة بان قصر أحمد باي ذو قيمة أثرية و واحد من أهم الشهود على تاريخ الجزائر، ومتحف حي يعرض فنون وعادات الشعب القسنطيني التي يجب أن تظل راسخة لتطلع عليها أجيال المستقبل.